عندما كنت في السجن، كنت أتحدث إلى رفاقي بكل حرية. وكان قِدرُ أُمّي قريباً مني بحيث تصل لي روائح ما تطبخه.

لقد ندمت. فأنا حقاً غريب. وتساءلت:

ـ من يقوم مكاني في السجن هناك؟ فلو أُغلقت السجون لأصاب الكسادُ سوقَ الحرية.

قلتُ لأُمي وأنا أرتمي عليها أقبّلها:

ـ لقد هربتُ من سجن الأبرياء يا أمي. ولقد تعبتُ في الوصول إليه فإذا بالبراءة شبحٌ لا يتقن غير الهذيان.

ولكن أمي ظلّت صامتة، فأَعَدْتُ:

ـ لقد انتهيتُ من البراءة يا أمي.

فردت بعسر: لم يعد هناك فرق بين الذنب والبراءة. ألم تصادف هناك في السجن، البريءَ، بجانب المجرم؟...

جذبني بعنف وصاح بي:

ـ قم معي أيها....

ـ قلت وأنا أرتجف: من أنت؟

كان هو حارس بوابة سجن الأبرياء.. بواب مدينة الأسوار العالية ـ الذي أمرني أن ألقي بمزودي وعرّى رفاق الرحلة. وبينما أنا ألقي بمزودي وزادي سألتُ أحد الرفاق:

ـ لماذا تخلّيتُم عن الوقار وبُحْتُمْ بسوءاتكم؟

أجابني: لقد جئنا هنا كي نتحول. فهل أبقوك أنت هكذا؟ إذن فحظك سيّئ. وستعود إلى سجن الأبرياء حيث كنت.

ناداني الرجل صاحب البوابة وقال بأدب وهو يصافحني:

ـ لقد كنت العدد الزائد.

ـ قلت: سأبقى في الانتظار. فما تجشمتُه من أجل الوصول كان عسيراً. اسألْ رفاقي وستعرف.

ـ وحتى لو انتظرت الدهر كله فلن تفتح لك مدينتُنا أبوابها ولن تأويك.

ـ عمل وحشيٌّ، لا يخلو من ريبة، وفيه شبهة أيضاً.

قال الرجل وكأنه يصفعني:

ـ حدّث بهذا من كتبوا في ملفك جملاً سوداء.

وعدت أبحث عن مزودي وأنا أنظر إلى البوابة تغلق. ومن فوق الأسوار العالية رأيْتُ رفاقَ رحلتي وهم يلوّحون لي بالوداع، وفيهم من حاول أن يلقي بنفسه لولا الهوّة.

تونس

لامبالاة

فوزية علوي(*)

القط ارتمى كالجريح يتشرب أشعة الشمس، وفروته القطنية في رماد يحاول إخفاء كآبته بلمعان باهت، ذيله طريحٌ ومخالبه اختفت تحت حبيبات أصابعه الوردية...

منذ مدة كف عن مطاردة الفئران والهوام... عاف الأكل... واكتفى بمضغ ريقه والاصطلاء بنار الشمس كأن به سقماً أو وِحاماً...

الشاشة تعرض وفاقاً بين اليهود والعرب... الشيخ صاح في حنق: «أغلقوا هذا الصندوق».

الشاب الأسمر لم يرفع عينيه عن رقعة الشطرنج. طرق برخ على الطاولة. سكوت. الشيخ لملم برنسه وخرج يلعن الجميع مردداً: لو أن الله أرسل علينا طيراً أبابيل أو حتى فيلقاً من الفيلة المتوحشة لكان هذا أقل الجزاء...

لم يعلّق أحد... المرأة الشابة تقلّم أظافرها ووجهها إلى الجدار... طفل صغير وقف على أصابع قدميه وغيّرَ القناة يبحث عن صور تتحرك.

القط يصيح في فزع لأنّ سيارة داست ذيله..

قط الحقيقة يهب مذعوراً بالخارج، وعندما يعلم أن المسألة لا تعدو أن تكون إخراجاً فنياً يعود إلى نومه مستسلماً.

صاحب الشطرنج يهبّ غاضباً، يمسك الصَبي من ذراعه يقذفه إلى الخارج، ويضغط على الزر فيقصف القط والاتفاق...

العجوز تتسلى بمسبحتها، تحتج: «يا ابني أنا أنتظر صلاة العصر، والمسجد بعيد... وسمعي كليل.. فدعني استمع إلى الأذان وأطفئ التلفزيون إن شئت بعد ذلك».

الشاب لا يرد... يبحر من جديد في الأبيض والأسود والجنود يتقدمون بإصرار.

العجوز تمتمت ثم أخفت مسبحتها تحت المخدة وتكورت فوق النطع مرجئةً أمرها إلى الله.

الطفل في لُعاب ومُخاط واحتجاج مكتوم يقتحم الغرفة ثانيةً، يرمي نظرات متوسلة إلى الشاب الغارق في الرقعة، يستغل إطراقه، يتقدم بخطى خائفة، يضغط على الزر من جديد... الصوت يعلو مزعجاً... الشاب يرفع رأسه عن اللعبة.

الملكة سقطت مغشيّاً عليها من هول الصدمة، لم يبق جندي

(*) أستاذة في الأدب العربي

واحد لنصرتها... العجوز تكبّر وتحوقل متصورة أنه الأذان. الشاب قرّر أن لا يقمع الطفل هذه المرة، فيتجاهله...

الطفل يبتسم ويستقر في قعر الأريكة المتداعية، يضع رجليه على المنضدة ويحملق في الشاشة وحواسه يقظة... ثم لا يلبث أن يهبت ذلك الألقُ في عينيه.

انتهى شريط الرسوم المتحركة وهذا موعد الأنباء. ينزلق من الأريكة مجرجراً ساقيه... يبلعه الفضاء الخارجي... يتلفت، يعزيه مرأى القط وهو مرمي كجورب قديم فيهب نحوه، يجرّ ذيله. لكنّ القط لا يبدي اهتماماً كبيراً، يفتح عينيه في نصب... فيؤذيه الضوء فيعود إلى نومه كأنما ذيله لقطٌ آخر.

الشابة بعد تقليم أظافرها تلتفت في اهتمام بارد إلى الأنباء وهي تترنم بأغنية نزقة...

«وأعرب السيد... عن كبير افتنانِهِ بالحفاوة التي لقيها من السيد...»

«وبحبك أنت
أتاري أنت
ما فهمتش أنت»

«وعلق مبعوث صحفي أن الأوضاع استقرت طيلة الليلة الماضية... لكنّ محدثاً أضاف أن الأحياء الجنوبية رُوِّعتْ بقصفٍ مدفعي مكثف عند الفجر».

والفتاة تترنم:

«... ولما أقلك كمان بحبك
يقلي قبك
خليني جنبك...»

«وأكد ملاحظون أن نسبة الحوادث قد قلّتْ بصفة واضحة في مدينة «ك» والسبب عائد إلى الإعراض الواضح عن استعمال السيارات واستبدالها بحمر الوحش...»

يضحك الشاب ويضرب بقبضته على الرقعة فيتطاير الجنود والملوك وتسقط القلاع والحصون، ويرفع قارورة الماء عالياً ويقلبها في جوفه مرة واحدة.

الشابة ترمقه بعين فارغة ثم تقول: «هذه الألعاب لا تليق برجل له ربع دماغ... أراهن أن رأسَكَ ملآن بأعقاب السجائر وقشور عبّاد الشمس».

الشاب يسرح شعره بأصابعه وهو يقزقز لُبّاً. يقترب من الفتاة السمراء يقذف في وجهها بقشور وبصاق ملوث بالسجائر، فترد عليه بمبرد أظافرها، لكنها تخطئه، فيقهقه ساخراً ويهرع إلى باب الحجرة فاراً... العجوز في أروادها تفتح عينين غائمتين، والوقت مغرب، تسأل عن صلاة العصر، والمنزل كله يغرق في الصمت.

سبتمبر ١٩٩٣

القصرين ـ تونس

الغيلـم

الناصر التّومي(*)

تسلم اللفافةَ من التاجر. التفت يمنةً ويسرةً وجلاً، وسرعان ما تفطن إلى أنه منذ لحظة قد أزاح عن كاهله كابوس الخوف، ولام نفسه على هذه العاهة المتشبّثة به رغم ما فعل للخلاص منها.

غادر نهجَ سيدي محرز، وبيطحاء باب سويقة توقّفَ هنيهةً مفكراً؛ أيّ الطريقين يختار إلى وسط المدينة: مباشرة، أم حيث مسرح حياته والبدء من النهاية؟ هَدَتْه اللفافة إلى الاختيار الحسن، جاعلاً هدفه شارع «تسع أفريل». سنوات عديدة توقف فيها الزمن، كابتاً طموحه،... هياكل واهية، نفوس منكسرة، رؤى غير واضحة ولا ثابتة.

كان إحساسك يلح عليك بأن هناك من يراقبك على الدوام، يتقصى حركاتك وتنقلاتِك، ويحصي عليك ألفاظك وأنفاسك ويتنصّت إلى أحلامك. لذلك تعلمتَ الصمت تجنباً للمفاجأة. تحرّش بك بعضُهم دون مبرز، كنتَ على يقين أن أيدي خفيّة تحرك كل شيء داخل ذلك المعتقل، لتزيل ما تبقى لك من كرامة وعزةِ نفس. ورغماً عنك أبديتَ طاعة عمياء.

وراء القضبان تعلّمَ الكثير مما لم يتعلّمه خارجها.

نقل اللفافة من يمناه إلى يسراه وألقى نظرة إلى ما حوله، ثم لَعَنَ نفسه التي آنست الرهبة.

قادته رجلاه إلى شارع باب بنات. توقف برهة أمام المدخل الرئيسي، وبوابتِه الحديدية العالية. قبل أن يحتويه هذا المكان كان يجد فيه العزاء، ولا يصدق الأساطيرَ التي تحاك حوله، وبدا له أن مَيلاً قد طرأ على ميزان العدالة المعلق بأعلاه.

مرّ أمام مدارج الضبّاط. توقّف هنيهة، أحس بالحنين إلى زيارة القبو الذي كان يلتقي فيه بالرفاق. لم يكن يعرف كيف تم اختيارُ هذا المكان ليكون مقراً لَهمْ: ألكونه شهد منذ ثلاثين سنة تناحر الإخوة الأعداء، أم لقربه من ساحة الحكومة؟ لقد التحق مؤخراً بالجماعة فغابت عنه الحقيقة.

عُرفتَ بترددك على الدوام قبل الإقدام على أمر ما، لكنّك لا تخون العهد. ولما فاتحوك بالانضمام إليهم كانوا على يقين بأنك إن لم تقبل النضال فلن تشي بهم. وتطلّبَ انتظارُك الأسابيعَ للحصول على موافقتك.

(*) مولود في ٢٢ جانفي ١٩٤٩، يشتغل مُوظّفاً عمومياً. أصدر: **كلّ شيء يشهق** (مجموعة قصصية) صدرت عن منشورات الأخلاّء، في تونس عام ١٩٨٢؛ **وليالي القمر والرماد** صدرت عن منشورات الأخلاّء عام ١٩٨٦. وله أعمال أخرى مخطوطة...